الفصل الثانى عشر

الإلحاد فى العالم الإسلامى

- **ـ الإلحاد فى القرآن الكريم**
- **ـ حروب الردة**
- **ـ الزنادقة**
  - ـ نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية
  - ـ من هم الزنادقة
  - ـ ابن الراوندى
  - ـ دروس من حركة الزنادقة
- **ـ الإلحاد المعاصر**
  - ـ المُلَيحد د. إسماعيل أدهم
  - ـ نكبة عبد الله القصيمى
    - ـ لماذا؟...
  - ـ قاذورات القصيمى الإلحادية
  - ـ القصيمى فى الميزان
- **ـ الإلحاد فى بيوتنا**
  - ـ خلفيات الموجة الإلحادية
  - ـ الإلحاد السفسطائى وأنماطه
- **ـ القارئ الكريم**

«إن انتشـار الكفر فى العالم يحمل نصف أوزاره متدينون... بَغَّضوا الله إلى خلقه... بسوء صنيعهم... وسوء كلامهم».

الشيخ محمد الغزالى[1]

تُعتبر ظاهرة الإلحاد من أخطر الظواهر فى تطور الحياة الروحية، وهى تفسح لنفسها مكانًا فى كل حضـارة حينـما تصل إلى فى **طـور الرفاهية**، ذلك أن بعض النفوس تكون قد اسـتنفدت تطلعاتها و إمكانياتها الدينية واشتاقت إلى المزيد من المتع الحسية.

ويختلف نمط الإلحاد **تبعًا لروح الحضارة التى انبثق فيها**. فإذا كان نيتشة قد عبر عن الإلحاد الغربى بقوله: «**لقد مات الله**»، وعَبر الإلحاد اليونانى بقوله: «**إن الآلهة المقيمين فى المكان المقدس قـد ماتـت**»، فإن الإلحاد العربى يقول: «**لقـد ماتت فكرة النبوة والأنبيـاء**». ذلك أن الإلحاد فى العالم الإسـلامى يصدر عن الـروح العربية التى كانت تنظر إلى العلاقـة بين الله وبين العبد باعتبارها صلة افتراق وبُعد كامل[2]، لذلك احتل النبى (الوسـيط بين الله والعبد) أخطر دور فى الحياة الدينية الإسلامية.

ولا فـرق فى الواقع فى **النتيجـة النهائية** بين كلا الموقفين، فكلاهما يؤدى فى النهاية إلى **إنكار الديـن**؛ فبإنكار الإله عند اليونـانى القديم وعند الغربى المعاصر ينتفـى الدين، وبإنكار النبوة والأنبياء عند العربى تزول الأديان، فينقطع كل سبيل إلى الألوهية ذاتها. وفى النهاية **يتلاشى فى الحالـين القول بالبعث، وما يتبعه من ثواب وعقاب** وما يتطلبه ذلك من التزام بطاعات وانتهاء عن معاصٍ. وهذا هو جوهر ما يهتم به الملاحدة بكل أصنافهم[3].

(1) الشـيخ محمد غزالى: من أشـهر الداعين لتجديد الفكر الإسـلامى فى القرن العشرين، والمناهضين للتشدد والغلو فى الدين، ولد بمحافظة البحيرة بمصر (1917 - 1996).

(2) العقيـدة الإسـلامية الصحيحـة خاليـة من مفاهيم وحـدة الوجود والحلـول والاتحاد التى نجدهـا فى الديانات الأخرى.

(3) المقدمة السابقة تلخيص بتصرف من كتاب «من تاريخ الإلحاد فى الإسلام»، للفيلسـوف الدكتور عبد الرحمن بدوى.

الإلحاد فى القرآن الكريم

يـرى الكثير من المفسرين أن القرآن الكريم لم يتنـاول قضية الوجود الإلهى، باعتبار أنها فطـرة فى النفس البشرية[1]، لذلـك اتجه مباشرة إلى تناول أنماط الانحـراف المختلفة عن هذه الفطـرة. ونحن نختلـف مع هذا الرأى، فالكثـير من آيات القرآن الكريم يـدور حول إثبات حقيقة الوجود الإلهى، كما يدعو الإنسان للنظر فى آيات الآفاق والأنفس حتى يتبين أن القرآن حق وأن الإله حق.

والقـرآن الكريـم باعتباره موجهًا للبشر جميعًا وباعتباره خاتم الرسـالات السـماوية كان طبيعيًا أن يخاطب البـشر جميعًا، ابتداء من المؤمنين صادقى الإيمان إلى مدعى الألوهية، مرورًا بجميع أشـكال الطمس والانحراف التى يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية. وإليك أهم أنماط هذا الانحراف كما جاءت فى القرآن الكريم:

1- يقـول الحـق عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافـرون]. يطلق القـرآن الكريم على من تصيـب فطرتهم الأنماط المختلفـة من الطمس والانحراف اصطـلاح «**الكافرون**». «وكَفَرَ» بمعنى غَطَّى، أى أن فطرتهـم قد غطاها مـا غطاها من ران. وهـؤلاء الكافرون قد يكونـون «مدعون» أو «منكرون» أو «مشركون» أو «ضالون».

2- يتناول القرآن الكريم «**مُدَّعو الألوهية**» من خلال القصص القرآنى، فيحدثنا عن نمرود إبراهيم وفرعون موسى. وهذا الادعاء هو أشـد أشكال الانحراف عن الفطرة السوية. وهـؤلاء تقابلهم فى العصر الحديث **المدارس الفكرية الماديـة** التى جعلها المنكرون لله عَزَّوَجَلَّ آلهـة يتبعونهـا؛ كالدارونية والماركسـية. ويمتـد الادعاء ليشـمل أيضًا «**ادعاء النبوة**».

(1) كذلـك يرى البعـض أن معظم أهل مكة كانوا يقرون بوجود الإله، ومن ثم لم يكن هناك مبرر لإثبات ذلك. وهذا الرأى مردود، فالقرآن الكريم لم ينزل لأهل مكة وحسب، بل للبشر أجمعين عبر المكان وعبر الزمان.

ويقول القرآن الكريم فى ادعاء النبوة وادعاء الألوهية ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام].

3- يطلق القرآن الكريم على «**المنكرون**» لوجود الله عَزَّوَجَلَّ اسم «**الدهرية**». وهذه الطائفة من العرب شعارها: ما هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، لذلك قال فيهم الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية].

وجاء فى «**موسوعة المفاهيم**» للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن الدهرية مذهب كل من اعتقد فى قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخلق والعناية والبعث والحساب. كما يرون أن الموجب للحياة والموت هى طبائع الأشياء وحركات الأفلاك، ويعتقدون أن للحياة دورات تتكرر كل 36 ألف سنة يعود بعدها كل شىء إلى ما كان عليه. وقد عُرفت الدهرية فى بلاد الهند قبل الإسلام، ومن هؤلاء مذهب «السمنية» الذين ينكرون الألوهية والوحى والنبوة والرسالة، ويؤمنون أن لا طريق للمعرفة إلا الحس[1].

والدهرية أصل كل مذاهب الإلحاد والمادية التى عرفتها البشرية، كما يمكن اعتبار **الفلسفة الوضعية الحديثة** أحدث صور الدهرية القديمة. وهؤلاء الدهرية المنكرون للألوهية هم أقرب الكافرين من «الملاحدة» المعاصرين.

4- يخبرنا القرآن الكريم بما سيدعيه بعض الكافرين بعد أربعة عشر قرنًا عن **خلق الكون والإنسان من عدم**. فيقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور]: سبحان الله، فـ﴿ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ تعنى من غير مادة ومن غير سبب أول، و﴿ هُمُ

(1) نلخص هذه الفقرة عن مقال للأستاذ د. محمد عمارة، نُشر بجريدة الأهرام 6/ 4/ 2009: وقعت هذه المناظرة المشهورة بين السمنية والجهم ابن صفوان (توفى عام 745) زعيم الجبرية. وفى المناظرة، وافق الجهمُ السمنية على ألا شىء سوى المحسوس، عندها أفحموه بأن إلهه غير محسوس، ومن ثم غير موجود. بعدها أرسل الجهم إلى واصل ابن عطاء (المتوفى 748م) زعيم المعتزلة (التيار العقلانى) يطلب منه حل الإشكال، فطلب منه واصل أن يسألهم إن كان العقل الذى يؤمنون بوجوده محسوس؟ وجعلهم يستنتجون من ذلك أن المعلوم ليس فقط ما تدركه الحواس وإنما يضاف إليه ما يثبته الدليل. عندها سعوا إلى لقاء واصل واعتنقوا على يديه الإسلام.

ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ تعنى أن المخلوق (الكون والإنسان) قد أوجد ذاته، وكلاهما مما وقع من الملاحدة المعاصرين.

5- يحدثنا القرآن الكريم عن طائفة تقر بالإله الخالق، لكنها ترى أنه قد **اعتزل الكون** بعد أن وضع فيه القوانين التى تُسَيره، ومن ثم **ينكر هؤلاء «القيومية»** أى ينكرون متابعة الإله الخالق للكون بالحفظ والتدبير والرزق و... وقد قال فيهم الحق عَزَّوَجَلَّ[1] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

6- يخبرنا القرآن الكريم بأن من الكافرين من يقر بالقيومية (متابعة الله عَزَّوَجَلَّ خلقه بالرعاية) فقال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ... ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، **لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل**، أى **ينكرون الديانات**. وهذه الطائفة تقابل «**الربوبيون**» بالمعنى المعاصر.

ويهدف هؤلاء من إنكارهم للدين - فى المقام الأول - **إنكار البعث والثواب والعقاب**. فعند ذلك لن يكون هناك مبرر للعبادات وللالتزام بأوامر الله عَزَّوَجَلَّ ونواهيه. وبذلك **يفرغون الألوهية من كل معنى وقيمة**.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]، ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

كما يبين الحق عَزَّوَجَلَّ أن رفض هؤلاء للدين قد يرجع **لأسباب نفسية** (خاصة الكِبْر)، ونجد ذلك كثيرًا فى أيامنا هذه، فيقول: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف].

7- يأتى بعد المدعين والمنكرين «**المشركون**». والمشرك هو الذى يؤمن بوجود الله عَزَّوَجَلَّ، **لكنه يعبد معه غيره**، بزعم أنه يقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ ... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].

(1) جاء هذا المعنى أيضًا فى سور: لقمان - 25، الزمر - 38، الزخرف - 9.

وقد كان هذا الصنف من الكافرين أكثر من واجه دعوة الإسلام فى بدايتها فى مكة المكرمة.

ومن أشكال الشرك الأخرى التى يعرضها القرآن الكريم ويكشف فسادها أن يتخذ الإنسان من **«هواه» شريكًا لله** عَزَّوَجَلَّ أى أنه يُسلم زمام نفسه لميوله ورغباته ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ...﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان].

8- و«الضالون» آخر أنماط الكافرين. وهم الذين **ضلوا عن الحق بعد أن عرفوه.** ومن أخص هؤلاء المسيحيين، فقد بين القرآن الكريم أن معظمهم ضلوا عن المعنى الحقيقى للتوحيد الذى دعاهم إليه نبيهم، فأشركوا مع الله المسيحَ وأمه مريم[1]: ﴿**وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ ...﴿١١٦﴾**﴾ [المائدة].

ومن الضالين أفراد من أمة محمد ﷺ، عرفوا الحق ثم ألحدوا فى أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وآياته.

9- جاء لفظ «**يلحد**» فى القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾**﴾ [الأعراف].

وهذا هو **الإلحاد فى أسماء الله** عَزَّوَجَلَّ، أى الميل والانحراف بها إلى الباطل، فينسبون إلى الله عَزَّوَجَلَّ العدمية، أو الجبر، أو الحلول والاتحاد، أو... حاشا لله عَزَّوَجَلَّ[2].

والثانى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ ...﴿٤٠﴾**﴾ [فصلت].

---

(1) ما زال من المسيحيين من يؤمنون بوحدانية الله، وبأن الكتاب المقدس ينص على أن المسيح رسول الله، وينكرون كل ما أُدخل على المسيحية من عقائد ضالة. ويُطلق على هؤلاء اسم «**شهود يهوا**».

(2) فى ذلك يقول الإمام ابن تيمية:

وَأَضْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ هُوَ الخَوضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

ويقول: أفعال الله لا يُسأل عنها بِلِمَ (أى لا نتفكر فى العلة وإنما نتفكر فى الحكمة)، وصفات الله لا يُسأل عنها بكيف.

وهو تحريف معنى **آيات القرآن الكريم** إلى غير مراد الله عَزَّوَجَلَّ منها.

والثالث: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

ويلحدون إليه بمعنى ينسبون إليه. والمقصود فى الآية أن الكفار ينسبون تعليم محمد ﷺ إلى الكُهان، وهؤلاء لسانهم أعجمى غير عربى.

مما سبق، يتضح أن القرآن الكريم استعرض كل أنواع الضلال والانحراف عن فطرة الإنسان السوية، لذلك يحدثنا علماء التوحيد عن **توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات**[1]. فسبحان الإله الواحد الأحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

حروب الردة

شهدت الساحة العربية الإسلامية عقب وفاة المصطفى ﷺ حدثين أطلق عليهما الدارسون اسم «**حروب الردة**». الحدث الأول هو «**ادعاء النبوة**»، ومن هؤلاء المدعين مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأسدى، والأسود العنسى وسكاح وغيرهم. وكان الغرض من هذه الادعاءات تحقيق الجاه والسلطان فى بيئة تتصارع قبائلها من أجل السيادة. أما الحدث الثانى فكان «**منع الزكاة**»، إذ رفضت بعض القبائل سداد زكواتها إلى السلطة المركزية فى المدينة المنورة، فرأى الخليفة الصديق فى ذلك تهديدًا لوحدة الأمة الناشئة وكيانها. وإذا كان الحدث الأول يمثل ردة حقيقية وإلحادًا، فلا ينبغى تعميم تلك النظرة على الحدث الثانى.

وقد اجتاحت هذه الفتن جزيرة العرب حتى لم يبق على الدين القويم إلا أهل مكة والمدينة والقبائل المحيطة بهما. لذلك جَرَّدَ الخليفة أبو بكر الصديق عشرة جيوش خاضت حروبًا طاحنة مع زعماء الفتنة وانتصرت فيها حتى استقرت الخلافة الإسلامية.

---

(1) **توحيد الربوبية:** هو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بأفعاله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك.
توحيد الألوهية: هو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة من صلاة وصوم وحج وزكاة ونحو ذلك.
توحيد الأسماء والصفات: أن تصف الله عَزَّوَجَلَّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ وأن تسميه بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

الزنادقة

بعد انتهاء حروب الردة، شُغل المسلمون بنشر الإسلام وتدعيم الدولة الناهضة والدفاع عن حدودها، كما شُـغلوا بصراعات الفتنة الكبرى، وتأسيس الدولة الأموية ثم العباسية ومحاربة المعارضـين. وقـد مثلت هذه الظـروف **مناخًا مناسـبًا** لظهـور العديد من المذاهـب والفرق، كالخوارج والجبرية والقدرية والمُرجئة والمعتزلة...

نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية

وصل الإسـلام خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة إلى أكمل صورة قُدِّرَ للحضارة العربية بلوغها. **وتبعًـا لسـنن التطور الحضارى**، بدأ الانحـدار عن تلك القمـة فى العديد من المجالات خاصـة المجـال الدينى، فكان ذلك هو العامل الرئيس وراء ظهـور الإلحاد، وقد دَعَمَه عددٌ من العوامل المساعدة.

كانت «**النزعة الشـعوبية**» أهم العوامل المساعدة لظهور الإلحاد. ونعنى بها سعْى المغلوبين الذين قامت الحضارة الإسـلامية عـلى أنقاض حضاراتهم **(خاصة الفـرس)** للانتقام، وقد أجج ذلك تعصبهم لدينهم القديم، فى بيئة تعتبر الدين هو العامل الحاسـم فى قيام القوميات والدول. تأتى بعد ذلك «**النزعة المادية**»[1] التى تمجد العقل بحسـبانه الحاكم الأول والأخير الذى لا راد لحكمه، وقد نشـأت هذه النزعة فى العالم العربى الإسـلامى نتيجة لانتشـار **الثقافة اليونانية** فى تلك الأصقاع؛ سواء بشكل مباشر أو عن طريق بلاط كسرى أنوشروان.

وتُعتبر «**النزعة الحسية**» العامل الثالث المساعد على ظهور الإلحاد، فقد ضاق هؤلاء بضوابط الدين التى تحد من انطلاقهم لإشباع شهواتهم الجامحة. ونرصد ذلك بوضوح فى سلوك الجماعة المعروفة بـ«**عصابة المُجَّان**» على حد تعبير ماجنها الأكبر أبو نواس.

(1) يُشـار دائمًـا إلى النزعـة العقلية المادية باسـم (الحركة التنويرية)، وقد أُسـتخدم هذا الاصطـلاح فى فترات مختلفة أشـهرها بداية العصر الحديث. ولا شـك أن هذا الاصطلاح ينحاز لتلك المفاهيم المادية، لذلك عزفنا عن استعماله إذ لا نعتبرها تنويرًا!

مَن هُم الزنادقة؟

«زنديق» لفظ فارسى مشتق من «زندكراى»، وهو الشخص الذى يتبع كتاب زند **لزراديشت**[1]. وقد أُطلق الاصطلاح على من ظل ـ بعد الإسلام ـ **يعتنق تعاليم مزدك**[2] **ومانى**[3] التى تدعو إلى عبادة إلهين أزليين للعالم **(النور والظلمة)**، وتحرم الذبح وأكل اللحوم، وتبيح كل ما يحقق اللذة من المحرمات؛ كشرب الخمر ووطء المحارم، كما تُروِّج لعقائد الهند التى تقول بتناسخ الأرواح والحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

ثم اتسع معنى لفظ زنديق حتى صار يُطلق على **كل صاحب بدعة وكل ملحد**، وكل من يحيا **حياة المجون** من الشعراء والكُتاب. وانتهى الأمر باللفظ إلى أن صار يُطلق على كل من **خالف مذهبه بوضوح مذهب أهل السُّنة**.

وقد نقم الزنادقة الشعوبيين على الحكم الإسلامى، فسعوا إلى **الانقضاض على الحكم** من خلال **تقريب العناصر الفارسية** (كالبرامكة) من الخليفة العباسى، أو القيام بثورات عليه. كما سعوا إلى **إفساد عقيدة المسلمين** من خلال إقناع الشباب بمفاهيم مزدك الداعية للغرق فى اللذة. وتسجل كُتب التاريخ أن بعض من كانت لهم إسهامات كبيرة فى الحضارة العربية الإسلامية كجابر بن حيان ومحمد بن زكريا الرازى ظلوا على احترامهم للعقائد الفارسية. وبالنسبة **للنظرة الدينية**، يحتل الزنادقة طيفًا يمتد من الحياة الماجنة والتمرد على العبادات إلى الإلحاد بالمعنى الكامل وهو إنكار الألوهية[4]، ومن هؤلاء ابن الراوندى الذى يُعتبر أشهر الشخصيات الملحدة من الزنادقة.

---

(1) **زرادشت:** مؤسس الديانة الزرادشتية (المجوسية) منذ قرابة 3000 سنة فيما يعرف الآن بدولة إيران وما حولها، وتعتبر أقدم ديانات التوحيد.

(2) **مزدك:** داعية فارسى أسس الديانة المزدكية التى تؤمن بإلهين (الخير والشر). وأقرت المزدكية المشاركة فى الأموال والنساء. وقد ألغى الملك كسرى أنوشروان هذه الديانة وأعاد الزرادشتية لفارس.

(3) **مانى:** مؤسس الديانة المانوية فى القرن الثالث الميلادى، وهى مزيج من الزرادشتية والبوذية والمسيحية، وتؤمن بإلهى الخير والشر كالمزدكية، لكنها كانت تدعو إلى العفة الجنسية.

(4) من أبيات الشاعر بشار بن برد الإلحادية:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الفجارِ

النارُ عنصره وآدم طينةٌ ... والطين لا يسمو سمو النارِ

إنه يتبنى نفس منطق إبليس الذى تسبب فى طرده من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

ابن الراوندى

يعرفنا الدكتور يوسف زيدان[1] بابن الراوندى قائلاً:

«مـن أعجـب الشـخصيات فى التاريخ العربى الإسـلامى، بـل فى التاريخ الإنسـانى كله، شـخصية ابن الراوندى الملحد (أبو الحسـين أحمد بن يحيى بن إسـحاق، المتوفى فى حدود سـنة 301 هجريـة)[2]، فقد عاش الرجل حياة غريبة، تنَّقـل فيها بين الديانات والمذاهب على نحو عجيب.

كان ابـن الراوندى فى أول الأمـر **يهوديًّا**، وسرعان ما **أعلن إسـلامه** ليدخل فى نطاق عزة الإسـلام، ويسـتظل بظل الدولة العباسـية التى كانت ـ آنذاك ـ فى أوج مجدهـا.. ووجد ابن الراونـدى أن فرقـة المعتزلة هى أكـثر الفرق الإسـلامية اقترابًا من الخلفاء العباسـيين، **فصار معتزليًّا**! وألف مجموعة من الكتب على هذا المذهب.. لكن المعتزلة لم يفسحوا له مكانًا لائقًا بينهم، ولم يعطوه ما كان يطمح إليه، **فانقلب عليهم وهاجمهم** فى كتاب مشـهور له، عنوانه: فضيحة المعتزلة (نَقَضَ فيه كتاب الجاحظ: فضيلة المعتزلة!).

وقـام المعتزلـة بالهجوم على ابـن الراوندى وأوغروا صـدر الخليفة ضده، فهـرب والتجأ لأعداء الدولة من **الشـيعة الباطنيـة**، وألف لهم كتابًا ضد مذهب أهل السُّـنة، نظير مبلغ 33 دينارًا! وكان عنوان الكتاب: **فى الإمامة**.. وبعد فترة، شَـعر ابن الراوندى أن الشيعة لن يحموه من السُّنة، وأنه من الممكن أن **يتقرب للسنة** مرة أخرى، فكتب كتابه: فى التوحيد.

ثم اكتشـف ابن الراوندى أنـه لم يحقق مأربه عند أهل السـنة فخاصمهم، وانقلب عليه الشـيعة أيضًا.. فخرج عن نطاق الإسـلام بما فيه من سُنة وشيعة، **ولجأ إلى اليهود**. ومرة أخرى يسـتخدم ابن الراوندى فكره وقلمه لتحقيق أغراضه الدنيويـة التافهة، فيؤلف لليهود كتاب (البصيرة) ينتصر فيه لليهودية ويرد على الإسـلام، نظير مبلغ 400 درهم تقاضاها من اليهود.. ثـم أراد بعـد فترة أن ينقض الكتاب ويرد على ما ذكره فيه من آراء ضد المسـلمين والإسـلام، فأعطاه اليهود 100 درهم أخرى، فعدل عن الرد على الكتاب!.

وفى نهايـة الأمـر، يقف ابن الراونـدى **ضد كل الديانـات وجميع الأنبيـاء**، فيضع كتاب **«الفِرِنْد» (بمعنى: لا مثيل له)** ليطعن فيه على الأنبياء والنبوة، ثم يضع كتابه المشهور **«الزمردة»** ويطعن فيه الرسالات السماوية كلها، ويشكك فى الألوهية ذاتها..

(1) الدكتور يوسـف زيدان، أستاذ الفلسـفة ومدير مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية (سـابقًا). والتعريف بابن الراوندى عن مقال له بعنوان «أحفاد ابن الراوندى»، نشر بمجلة أكتوبر فى 27/ 3/ 1994.

(2) قيل إنه مات فى الأربعين من العمر، وقيل فى الثمانين.

هكـذا عاش ابن الراوندى حياته متنقلًا بين المذاهب والديانات، وقضى أيامه (الدرامية) البائسة ساعيًّا وراء المجد الدنيوى، وهو المجد الذى ما ناله ابن الراوندى قط، و إنما نال لقب: **الملحد الأكبر فى تاريخ الإسلام**».

أمـا أفـكار ابن الراوندى الإلحاديـة فتمثل نموذجًا لمـا كان عليه الزنادقـة الملحدين؛ وهذه الأفكار هى:

1- **القـرآن الكريم** ليـس نصًا فريدًا، ويمكـن كتابة ما هو أفضـل منه. ويرجع عـدم اهتمام العرب بمحاكاة القرآن إلى انشغالهم بالقتال والفتن.

2- ليس هناك مبرر **لإرسال الرسل**؛ فما يأتى به الرسول إما يكون معقولًا أو لا يكون معقولًا. فإن كان معقولًا فالعقل قادر على إدراكه دون الحاجة إلى رسول، و إن كان غير معقول فلا يكون مقبولًا.

3- ليس لله حاجة **لإرسـال الرسـل**، فالله قادر على أن يرتقى بالإنسـان بحيث يتوصل بعقله إلى رشده وصلاحه.

4- تحيط **بتصورات الإنسان عن الخالق** الأوهامُ والأساطير؛ لأن فكر الإنسان يعجز عن إدراك الخالق أو معرفة أوصافه.

5- **الحج ومناسـكه** طقوس هندوسـية وعادات وثنيـة كانت تمارَس فى الجاهليـة، ولا يختلف الطواف حول الكعبة عن الطواف بغيره من البيوت.

6- إن **غزوات الرسول** ﷺ عمليات سلب ونهب.

7- كان **الملائكة** الذين أنزلهم الله يوم معركة بدر «مغلولى الشوكة وقليلى البطش» إذ لم يقتلوا سوى سبعين رجلًا. ولِمَ لم يُنزل الله ملائكته يوم أُحد عندما توارى النبى ﷺ بين القتلى فَزِعًا!!

8- يتهكم ابن الراوندى على **وصف الجنة** فى القرآن الكريم قائلًا: إن فيها حليب لا يشتهيه إلا جائع، وفيها زنجبيل ليس من لذيذ الأشربة، وبها استبرق وهو الغليظ من الديباج.

وينبغـى هنـا أن **نفند أفكار ابـن الراوندى (وأفـكار الزنادقة)**، حتى لا نكـون كمن أثار زوبعة من تراب وتركها تؤذى أعين الناس:

1- لا شـك فى تعـدد جوانب إعجاز القـرآن الكريم، **وقد تحدى اللـه** عَزَّوَجَلَّ **الكافرين أن يأتوا بعشر سـور مثله، بل سـورة واحدة، بل آية! وما زال التحدى قائمًا، وبالرغم مـن ادعاء ابـن الراوندى بأن القـرآن الكريم ليـس متفردًا، فهو لم ينزل إلى سـاحة التحدى!.**

2- **لا يستطيع** العقل **أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من الرسالات السماوية، وقد أقر بذلك العديد من الفلاسفة حتى الملحدين منهم.**

3- **تشتمل كل الديانات التى يعتنقها البشر على طقوس متشابهة، منها الحج، فمصدر الديانات جميعًا هو الإله الخالق. ويعلم ابن الراوندى أن العرب كانوا يمارسون طقوس الحج نقلًا عن خليل الرحمن إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **قبل البعثة المحمدية.**

4- **يعرف الدارس لغزوات الرسول أنها كانت إما دفعًا لعدوان، أو تأمينًا للديانة الجديدة. وما كان يؤخذ من غنائم إما كان استردادًا لأموال المهاجرين التى أُغتصبت منهم، أو تماشيًا مع أعراف العرب فى القتال.**

5- **كان الدرس المقصود من نزول** الملائكة فى معركة بدر هو **تعليم البشرية أن الله** عَزَّوَجَلَّ **يُعين من يَصْدُق التوكل عليه واللجوء إليه. أما الدرس المقصود من** غزوة أُحد **فكان أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية وأهمها طاعة القائد، وهذا ما تجاهله ابن الراوندى. كذلك لم يشأ الله** عَزَّوَجَلَّ **أن تُفنى ملائكته مشركى بدر لعلمه أن معظم من نجا سيدخل الإسلام، وقد كان.**

6- **يعلم كل مهتم بعلوم القرآن أن** أوصاف الجنة **جاءت تشبيهًا بما هو معروف عند العرب ومحبَّب لديهم حتى يستطيعوا إدراكه، أما الحقيقة ففوق ذلك بكثير ومخالفة له تمامًا. ففى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.**

هذا هو ابن الراوندى الملحد المُتَلِّون المنافق، الذى خصه **المستشرقون** بالأبحاث المستفيضة، مشيدين بحريته الفكرية وجهوده التنويرية[1]!.

دروس من حركة الزنادقة

وقبل أن نطوى صفحة الزنادقة، ينبغى أن **نستوعب أهم دروسها:**

(1) يعلق د. يوسف زيدان على سيرة وفكر ابن الراوندى قائلًا: يبدو أن نسل ابن الراوندى لم ينقطع من بعده ـ مع أنه لم يترك أولادًا ـ ففى كل زمن نجد زمرة من هؤلاء الذين يتوسلون بالكلمة المكتوبة لتحقيق المآرب الدنيوية، بل إنهم قد طوروا منهجه الانتهازى المتلون، وجاءوا بما لم يعرفه الأوائل من حيل والتفافات.

فى بداية حركة الزنادقة، تصدى الخلفاء الأمويون والعباسيون لرجالها بالسجن والتعذيب والقتل، فما أثمر ذلك إلا المزيد من شيوع أفكارهم ومفاهيمهم. ثم نبه البعضُ الخليفة العباسى المهدى أن خير من يتصدى لهؤلاء هم المعتزلة (أصحاب المدرسة العقلية فى الفكر الإسلامى)، وكان الخلفاء قد ألقوا بهم فى السجون لعدم رضاهم عن أفكارهم. أفرج الخليفة عن المعتزلة، فساحوا فى الأقاليم يناظرون الزنادقة، ونجحوا فى أن يردوا معظمهم عن غيهم.

إن الدرس الذى ينبغى تعلمه من هذه الصفحة من التاريخ الإسلامى أن **الفكر لا يُقاوَم بالقهر، لكن ينبغى أن يُقَاوم الفكر بالفكر**. وهذا ما نصبوا إليه عندما ندعوا إلى **تجديد الفكر الدينى**، بل هذا هو قصدنا من تأليف هذا الكتاب عن «**خرافة الإلحاد**» ليكون عونًا فى الوقوف فى وجه المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا.

الإلحاد المعاصر

كما أسهمت **النزعة العقلانية المادية** فى ظهور حركة الزنادقة فى العالم الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، فقد أفرزت نفس النزعة توجهات لادينية فى مصر منذ مدخل القرن العشرين.

لقد مكنت **البعثات التى أرسلها محمد على وأبناؤه** من بعده المصريين من الاطلاع على ما كان يموج فى أوروبا ـ خاصة فرنسا ـ من **توجهات عقلانية مادية** ظهرت فيما عُرف بـ«**فلسفات التنوير**» كما ظهرت فى **الأدب العالمى** بصفة عامة. كذلك اطلع المصريون على **التوابع الفكرية المادية للنظرية الداروينية ولمفاهيم فرويد**، والتى لاقت قبولًا واسعًا فى الغرب فى هذه الفترة. وكذلك غذى **الحلم الماركسى الملحد** المتمثل فى نجاح الثورة الروسية أوهام المدينة الفاضلة عند الكثير من الشباب. وقد أفرزت هذه العوامل مجتمعة عددًا من الأنماط الفكرية المعادية للدين.

ويقسم **المفكر الكويتى الكبير د. محمد العَوَضى**[1] تلك الأنماط المعادية للدين إلى خمس مجموعات، وهم **المتشككون والمؤدلَجون** (كالماركسيين) **والتغريبيون والعلمانيون**، وفى آخر المطاف **الملاحدة**. ويلفت د. العوضى نظرنا إلى أن الكثيرين من هؤلاء اعترتهم **صحوة فكرية**

(1) فى محاضرة بعنوان «عودة الوعى»، ألقاها فى المؤتمر الرابع لمؤسسة فور شباب العالمية بالقاهرة، يوم 21/ 6/ 2013.

أعـادت إليهم الوعى بأهميـة الانتماء الدينى والحضارى والتراثى. ومن أشـهر هـؤلاء الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور زكى نجيب محمود والدكتور طه حسـين والأسـتاذ محمد حسـين هيكل والدكتور سـليمان مظهر والشيخ على عبد الرازق والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور مصطفى محمود والدكتور عبد الوهاب المسيرى وآخرين[1].

واسـتكمالًا لطـرح أبعاد خرافة الإلحاد، نعرض لفكر شـخصيتين تمثـلان نموذجين للإلحاد المعـاصر، وهما **د. إسـماعيل أدهم** الذى وُصف «بالمليحد» لموتـه قبيل بلوغه الثلاثين من عمره ولصغـر كتيبـه الذى اشـتهر به «لماذا أنـا ملحد»، **وعبد اللـه القصيمى** الذى يعتـبره الملاحدة المعاصرون أبًا روحيًّا لهم.

المليحد[2] د. إسماعيل أدهم

تـركى الأصل، وُلد بالإسـكندرية عام 1911، حصل على الدكتـوراه فى الرياضيات من جامعة موسـكو بالاتحاد السـوفييتى عام 1931، وعمل مدرسًـا للرياضيات بجامعة سـان بطرس برج ثم بجامعة أتاتورك فى تركيا، وعاد إلى مصر عام 1936. وفى عام 1937 نشر المفكر الإسلامى أحمد زكى أبو شـادى مقالًا بعنوان «**عقيدة الألوهية**»، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بمقال ـ تحول فيما بعد إلى كتيب ـ بعنوان «**لماذا أنا ملحد**» يشرح فيه معاناته مع الشك وكيف انتهت به إلى تبنى الإلحاد. ويُعتبر أدهم من القلائل فى العالم العربى الذين كتبوا عن تجربتهم الإلحادية فى ذلك الوقت.

يقول إسـماعيل أدهم عن **تأثير دراسـته وحياته بالاتحاد السـوفييتى**: «كانـت نتيجة هذه الحيـاة أنى تنكرت للأديان وتخليت عـن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى. ولشـد ما كانت دهشتى وعجبى أنى **وجدت نفسى أسـعد حالًا وأكثر اطمئنانًا** من حالى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقدى الدينى».

وإذا أردنا تتبع دوافع إسـماعيل أدهم الإلحادية، وجدنا **للعوامل النفسـية** دورًا كبيرًا. يبين

(1) وعَدَنـا د. محمد العَوَضى بـأن يؤلف كتابًا عن تحول هؤلاء الأعلام العرب من الموقف المعادى للدين إلى الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى.

(2) وُصف د. إسماعيل أدهم فى زمانه بـ «المليحد» لصغر سنه حين أعلن الإلحاد، ولصغر الكتيب الذى نشر فيه أفكاره الإلحادية.

أدهـم فى كتيبه أن أبـاه كان متعجرفًا وذا بطش، كما كان زوج عمته الـذى تابع تربيته يجبره وهـو طفل على القيام بالطقوس الدينيـة وحفظ القرآن. أما والدته فكانـت نصرانية، وتابَعَها أختـاه فى دينهـا، وكان يصـف الثلاثة بالتسـامح والمحبة، وكن فى نفس الوقت يسـخرن مما فى الكتاب المقدس من حديث عن المعجزات و يوم القيامة وكن لا يترددن على الكنيسة. ويخبرنا إسماعيل أدهم بأن هذا **التعصب الإسلامى والسخرية من النصرانية** مَثَّلا الخلفية النفسية التى مارس عليها **الانبهار بالعلم وبالفكر الماركسى** دوره فى أثناء حياته فى الاتحاد السوفييتى.

وبعد أقل من ثلاث سنوات، وفى إحدى ليالى شهر يوليو عام 1940، عُثر على جثة إسماعيل أدهـم طافية على مياه بحر الإسـكندرية، وفى معطفـه خطاب وجهه لرئيـس النيابة يبين فيه أنـه انتحـر **لزهده فى الحياة وكراهية لهـا**، و يوصى بعدم دفن جثته فى مقبرة المسـلمين و يطلب إحراقها. **أين السعادة والاطمئنان اللذان كان يستشعرهما إسماعيل أدهم أثناء إلحاده؟!**

ويمكن أن نلخص **المفاهيم الإلحادية عند إسماعيل أدهم** فى بضعة نقاط:

- الإلحاد هو الإيمان بأن **الكون يتضمن سببه فى داخله،** وأن لا شىء وراء هذا العالم».
- لا يرجع إقبال الفكر الإنسانى على **مفهوم الألوهية** إلى ما فيه من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، لكنه يرجع إلى ما يسميه علماء النفس «**التبرير**». فقد شَقَّت فكرة الألوهية طريقها لعالم الفكر بسبب ما يعترى النفس البشرية من خوف وجهل بأسباب الظواهر الطبيعية. ولا شك أن معرفتنا لأصل فكرة الألوهية تُذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها.
- إذا كان لا بد من الأسباب بالنسبة للكون، **فلماذا يُستثنى سيادته (الله** عَزَّوَجَلَّ**) من مبدأ السببية** (أى لا بد أن يكون للخالق خالق!).
- يفسر أدهم وجود كل ما فى الكون **بالاحتمالية والصدفة**، ويستشهد على ذلك بمثال حروف المطبعة التى يمكن أن تتراص بالصدفة عقب حدوث انفجار بها، لتُخرِج لنا مقالًا أو تُخرج القرآن الكريم.
- **يهدى إسماعيل كتيبه** «إلى أحرار الفكر، إلى الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا فى سبيل تحرير العقل الإنسانى من الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية، والذين أخذوا بيد الجماعات الإنسانية إلى الحياة الصحيحة، أهدى هذا الكتيب، لعلهم يجدون فيه نظرة حرة بعيدة عن تعصب الدين وجموده».

سبحان الله...

أى **حياة صحيحة** يتحدث عنها هذا المليحد، ربما يقصد المجازر التى قام بها الشـيوعيون فى

الاتحاد السـوفيتى الذى تعلم فيه وتأثر به. إنه نفس التعـالى وادعاء التفرد بالنضج العقلى الذى يمارسـه الملاحدة الجدد فى القرن الحادى والعشرين. كذلك هـى نفس المبررات الإلحادية التى طرحناهـا عـبر فصول الكتاب، وفندنا مـا فيها من بريق خادع يتسربـل بالعلم. ومن ثم **ليس هناك حاجة للمزيد من التفنيد**[1].

نكبة عبد الله القصيمى[2]:

عبد الله القصيمى (1907 - 1996) مفكر سعودى، من أكثر المفكرين العرب إثارة للجدل، بسبب **انقلابه من موقع النصير والمدافع عن الإسلام والسلفية إلى الإلحاد**.

لماذا؟...

قُدِّمَـت لتحول القصيمى من النقيض إلى النقيض وانتقاله إلى معكسر الإلحاد المعاكس عدة تفسـيرات، تدور جميعها حول **بنيته النفسـية**. لقد **كان القصيمى شكاكًا بطبعه**، حتى كانت تعتريه فى أثناء دفاعه عن الإسلام الشكوك حول الله عَزَّوَجَلَّ وحول الرسول ﷺ.

كذلك كان الرجل **ذا مزاج مندفع متطرف**، فهو دائمًا متمرد ثائر بشـكل عنيف، يشتم هذا ويلعن هذا ويسـخر من هذا ويحطم هذا ويمرغ بهـذا. فى البداية كان ذلك ضد أعداء الدين، ثم صار ضد مناصرى الدين.

ويعتـبر مـن يعرفـون القصيمى أنه كان **مـن مدمنى ركـوب الموجات الفكريـة الرائجة**. فحينما كانت الفرصة متاحة للموجة السلفية ركبها وانتفع بها حتى استنفد أغراضه منها. فلما برزت موجات القومية واليسارية والشيوعية وغيرها ركبها واستغل منابرها الصحفية وتحمس لفلسفاتها الإلحادية.

---

(1) ينبغى الإشارة إلى **مناخ حرية الرأى وحرية العقيدة** الذى كان سائدًا فى مصر فى ثلاثينيات القرن العشرين، والذى فاق أجواء الحرية فى بلادنا العربية فى القرن الحادى والعشرين. لقد أثار مقال عقيدة الألوهية للأستاذ أحمد زكى أبو شـادى المناظرة، فرد عليه صديقه إسـماعيل أدهم بكتيب «لماذا أنا ملحد»، فأجابه أبو شادى بمقال «لماذا أنا مؤمن»، كما نشر الأسـتاذ محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر مقالًا بعنوان «لماذا هو ملحد». لقد تميزت المناظرة بموضوعيتها وبأدب الاختلاف والحوار. قارن ذلك بفوضى تصارع الآراء التى سادت بعد ثورات الربيع العربى.

(2) تلخيص بتصرف عن مقال فى موقع صيد الفؤاد، للكاتب المُكنى بـ«صخرة الخلاص».

وأخيرًا كان الرجل **متكبرًا مغرورًا بنفسه**، حتى إنه مدح نفسه شعرًا قائلًا:

ولـو أن ما عندى مـن العلمِ والفضلِ يُقَسَّـمُ فى الآفـاق أغـنى عن الرُسْـلِ

يَكشف هذا البيت وحده خبيئة الرجل ويفضح دوافعه الإلحادية.

لم يكـف القصيمى ما وصل إليه من شـأن فى مجال الدفاع عن الإسـلام، إذ شـاركه فى هذا المضـمار كثـيرون، فقرر أن **يتفـرد فى مجال تميزه**. ويتضـح ذلك من نظرة واحـدة إلى الغلاف الخارجـى لكتابه (هذه هى الأغلال)، إذ كتب عليه: (سـيقول مؤرخو الفكر أن بهذا الكتاب بـدأت الأمـم العربية تبصر طريـق العقل). يبـدو أن **مصيبة «الكِبْر»** التـى أودت بإبليس قد أودت بالرجل.

وعندما سُئل القصيمى عن سبب تحوله، أجاب بأنه عندما بدأ يراجع نفسه وعقيدته بميزان العقل، **وجد من المشـايخ ورجال الدين كل هجوم وتعنيـف وازدراء**، بدلًا من التفهم والنصح والتوجيـه، فدفعـه هذا الموقف إلى **العناد**. سـبحان اللـه... ما أحكم المصريـين حين قالوا فى أمثالهم الشعبية «**العند يُوْرِثُ الكفر**»، وقد كان!

أى تلك الأسباب يكمن وراء نكبة القصيمى؟ علها جميعها.

قاذورات القصيمى الإلحادية

بعد انحرافه عن جادة الإيمان، كتب القصيمى حوالى عشرة كتب، لا تخرج عن:

- ❐ التعدى على **الذات الإلهية** وسبها بكل فظاظة ووقاحة.
- ❐ **سب الرسل والأنبياء** ووصفهم بأحقر الألفاظ والسخرية منهم.
- ❐ السخرية من **الشرائع والديانات** جميعًا وانتقادها بأسلوب جارح هدام معيب.
- ❐ الحط من **العرب** والتحقير والاستهزاء بكل ما هو عربى.
- ❐ الاستخفاف **بالقضايا العربية والإسلامية**.
- ❐ التغنى **بآلام الإنسان وتعاسته وأحزانه وهمومه** بشكل غريب وفظ.

ليس هناك مفر من أن نستشهد على أفكاره وأسلوبه السابق ببعض كتاباته:

يقول فى كتاب **«هذا الكون ما ضميره»**، تحت عنوان فى **«غار حراء لم أجد الإله ولا الملاك»**:

«ذهبت إلى الغار... غار حراء.. غار محمد و إلهه وملاكه... الغار العابس اليابس البائس اليائس... ذهبت إليه استجابة للأوامر... ذهبت إلى الغار الذى وَلَّدَ وَوَرَّث وعَلَّم ولَقَّن وأَلفَّ وحَرَّض وخَّلدَ أقسى وأقوى وأغبى وأجهل وأدوم إلهيات ونبوات وديانات ووقاحات ووحشيات! لقد مات هذا الغار ... لقد مات بأسلوب الانتحار لأنه أوحى إلى الإنسان العربى... إلى النبى العربى ما أوحى... ماذا أوحى إليه؟ لا تستطيع كل الحسابات والإحصاءات أن تحسب أو تحصى الخسران الذى أصاب الحياة والإنسان من هذا الوحى والإيحاء... هل أساء أى إله إلى نفسه مثل إساءته إليها بإيحائه ومخاطبته ومحاورته للإنسان العربى؟!

اسمع يا إلهى... اسمع بآذان غير آذانك التى جربناها وعرفناها... لو كان من صَنَعَ لك يا إلهى أذنيك أعظم فنان... فإنه قد جعلهما بلا وظيفة... بل ضد الوظيفة المفروضة فيهما.

لقد جئت يا إلهى فى حجم ترفض كل الأحجام أن تكونه أو تكون شيئًا منه... إنك يا إلهى بلا أى حجم...

كم هو فظيع أنه لم توجد منظمات ومحاكم عالمية بل كونية يتألف قضاتها وشهودها من كل الشموس والنجوم... كى تحاكم توراة الإنسان و إنجيله وقرآنه على قسوته وفحشه ووقاحته و بلادته!».

و يقول تحت عنوان: **لماذا يسارع المتخلفون إلى الدخول فى الإسلام**:

«أعلن النبى محمد أنه آخر الأنبياء وأنه بمجيئه قد أغلقت أبواب السماء، لئلا تتصل بالأرض أو تتحدث إليها بالأسلوب الذى تحدثت به إلى الأنبياء... ذلك بعد أن قرأ ورأى وعرف ضخامة وفظاعة عدوان السماء على الأرض وتشويهها لها بإرسال من تسميهم الأنبياء إليها... بعد أن عرف قبح عدوان الأنبياء على الأرض لمعرفته بقبح عدوانه هو عليها.

لو كان الإله يعاقب الوثن على قدر كونه وثنًا لما وُجد أو عُرف عقابًا يكفى لمعاقبة النبى العربى ولمعاقبة النبوة العربية!

كيف وَصْف النبى العربى محمد للإله؟ لمكره وخداعه وكبره، ولحبه وبغضه ورضاه وغضبه، ولسروره وكآبته وعداوته وشهواته وممارساته... إنه لم يوجد ولن يوجد هاجٍ مثل النبى محمد فى هجوه للإله!

إن القرآن هو أشهر وأضخم وأقسى وأفدح وأفضح كتاب امتداح وهجاء وافتخار

وادعـاء... لقد كان وسـوف يظل بـلا منافس فى فضحـه وافتضاحه... القـرآن أقبح وأفظع وأوقح وأنذل الأساليب والصيغ».

يكفينا ما نقلنا ... ونعتذر عما نقلنا

لستَ فى حاجة لتعليق أو تحليل أو تفنيد

لعل ما نقلنا يفضح ما يعتمل فى نفس الرجل من **كراهية وحقد وغِيره من الكمالات**... لعله يثبت ما وصفنا من خلل نفسى... كنت ملحدًا أو غير ملحد، لماذا يجرنى ذلك إلى الانتقاص مما يؤمن به الآخرون و يقدسونه!!

القصيمى فى الميزان

نختم بتعليق المفكر والأديب والشـاعر **ميخائيل نعيمة** عـلى كتاب القصيمى (العَالم ليس عقلًا)، يقول مخاطبًا المؤلف:

«إنه كتاب هدم ونفى من الطراز الأول. هدم الآلهة والأخلاق والفضائل والثورات والمثل العليا والغايات الشريفة، لا عجب فأنت فى أول فصل تنفى أن يكون لوجود الإنسان أى معنى، والذى لا يعرف لوجود الإنسان ولعبقريته أى معنى كيف يكون لكلامه أى معنى؟

إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة واشـمئزازًا وحقدًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع قنبلة لكانت أشد هولًا من قنبلة هيروشيما».

مات القصيمى طريح الفراش فى إحدى مستشفيات القاهرة. يدعى البعض أنه تاب إلى ربه قبل أن يموت. تاب أم لم يتب، إنه الآن بين يدى ربه...

الإلحاد فى بيوتنا

يتردد فى الإعلام العربى (والمصرى بصفة خاصة) أن **مدًا إلحاديًّا ظهر بين الشباب العربى فى الفترة الأخيرة**، فما نصيب هذه الأقوال من الحقيقة؟

ليس لدينا **دراسات إحصائية دقيقة** للإجابة عن هذا التساؤل[1]، لكن **انطباعى الشخصى** يؤكد وجود هذا المد. ففى العامين الماضيين حاورت عشرات الشباب الملحدين والمتشككين، كما علمت بيقين وجود مجموعات إلحادية فى الجامعات والمدارس (حتى الإسلامية والمسيحية منها)، حيث يوزع البعض أوراقًا على الطلبة تحمل هذه الأفكار، وأيضًا فى النوادى ومختلف التجمعات الشبابية. هذا بالإضافة إلى استحداث عشرات من **المواقع الإلحادية العربية** على الإنترنت، بل و إصدار **مجلات ومطبوعات إلحادية تشكيكية فاخرة الإخراج** تُوزع فى مختلف الدول العربية. وقد سجل أحد أكبر المواقع العربية الإلحادية أن الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر 2012 شهدا انضمام 350 شابًا مصريًّا ملحدًا جديدًا إلى الموقع، وكان نصف هذا العدد من الفئة العمرية 15 - 25 سنة.

خلفيات الموجة الإلحادية

لا شك أن **شبكة المعلومات (الإنترنت)** قد يسرت اطلاع الشباب على ما يموج به العالم من أفكار إلحادية، كما سمحت **شبكات التواصل الاجتماعى** المختلفة بتبادل هذه الأفكار بينهم. وقد تزايد هذا المد الإلحادى بعد **ثورات الربيع العربى**، و يرجع ذلك إلى عدة أسباب؛ لعل أهمها أن الثورات فى كله كانت تتبعها موجات إلحادية، و يرجع ذلك إلى أن تلك الثورات ما قامت

(1) أجرى **معهد جالوب الأمريكى** دراسة فى أعوام (2006 - 2008) شملت 143 دولة واشتملت على 1000 شخص من كل دولة. وذكرت الدراسة أن **المصريين أكثر شعوب العالم تدينًا** بنسبة 100 %، وأستونيا أقلهم بنسبة 14 %، وتلى مصر بنجلاديش ثم المغرب وجيبوتى والإمارات العربية المتحدة.

كذلك نشرت صحيفة الواشنطن بوست فى 15/ 6/ 2013 نتائج دراسة أجراها **معهد جالوب الدولى** Win Gallup (وهو غير معهد جالوب الشهير) عام 2012 على خمسين ألفًا من الأشخاص فى 54 دولة حول موقفهم العقائدى.

أظهرت الدراسة أن 59 % من العينة متدينون، 23 % غير متدينين، 13 % ملحدون. وكانت أعلى نسبة للإلحاد فى الصين، بينما ارتفعت النسبة بين عامى 2005 و 2012 فى باكستان من 1 % إلى 2 %، وهبطت فى ماليزيا من 4 % إلى صفر، وبذلك تصبحان أقل الدول إلحادًا.

والمدهش أن الدراسة ذكرت أن نسبة الإلحاد بلغت 6 % فى السعودية، وبذلك تصبح فى مقدمة دول العالم الإسلامى! كما تضاهِى نظيراتها فى البلدان الأوروبية العلمانية مثل بلجيكا!.

ولا شك أن **هاتين الدراستين تنقصهما الدقة العلمية إلى حد كبير**، فالاكتفاء بعينات من ألف شخص من كل دولة ـ لا ندرى كيف تم اختيارهم من مختلف الأوساط العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ـ لقياس ظاهرة التدين شديد الشيوع يُفقد أى دراسة موضوعيتها **و يسمها بالانتقائية وعدم الحيادية وربما سوء القصد**.

إلا بعد أن بلغ التمرد حده، وهو نفس التمرد الذى يؤدى إلى الإلحاد. كذلك فإن نجاح الشباب فى تحديهم لرموز السلطة فى هذه البلاد قد شجع بعضهم على تحدى الرمز الأكبر متمثلًا فى منظومة الألوهية والدين، كما سمح جو الحرية الذى أتاحته الثورات بالبوح بهذه الأفكار. ولا شك أن فشل تجربة الإسلام السياسى (خاصة فى مصر) سيؤدى إلى انعكاسات سلبية فى هذا المجال.

فى الجانب الآخر، **عجز الخطاب الدينى التقليدى عن مجاراة ما تموج به الأوساط الإلحادية من أفكار وحجج علمية وفلسفية**، بسبب اكتفائه بالطرح التراثى وانقطاعه عن المستجدات العلمية والحضارية. وتشير دراسات عديدة إلى أن **الفكر الدينى القاصر** هو أهم أسباب المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا العربية.

تضعنا هذه الخلفيات **أمام مسارين لا ثالث لهما**. الأول هو **«المسار الغربى الكنسى»** الذى تصادم فيه الدين مع العلم والعقل، فأفرز حضارة مادية ملحدة عاتية، هى الأولى فى تاريخ الإنسانية. والمسار الثانى هو **«المسار الشرقى»** الذى تبنته الخلافة العباسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، حين ظهرت الفلسفات المناوئة للإسلام وللألوهية، فكان الحل هو استدعاء خطاب دينى جديد للتصدى لهؤلاء المناوئين متمثلًا فى فكر المعتزلة العقلانى، وعلينا أن نختار.

الإلحاد السفسطائى وأنماطه

تدور **حجج الإلحاد فى الفكر الغربى** حول القضايا العلمية الخاصة بخلق الكون وظهور الحياة ونظرية التطور الداروينى والأبحاث الحديثة فى شتى المجالات العلمية، مما يُسَوِّغ تسميته بـ**«الإلحاد المادى الطبيعى»**. أما **الفكر الإلحادى بين شبابنا** فدور هذه القضايا العلمية فيه قليل، **بينما للانطباعات العامة** فيه دور كبير، كما أن **للخلفية النفسية** فيه دورًا كبيرًا أيضًا.

وتقف وراء الإلحاد الذى ظهر بين شبابنا «**مفاهيم ونماذج معرفية**[1] **مختلة** Paradigm Errors» تختلف من مجموعة لأخرى، يمكن أن نطلق علها جميعًا اسم «**الإلحاد السفسطائى**». وسأعرض فيما تبقى من الفصل أنماط وأسباب الإلحاد السفسطائى بين الشباب فى بلادنا، وذلك من خلال ما لمسته بتجربتى الشخصية، سواء فى محاوراتى ومناظراتى معهم أو متابعتى لمواقعهم

(1) **النموذج المعرفى** هو العدسات التى يرى الإنسان من خلالها الحياة، ويمكن تسميتها بـ**«المفاهيم الحاكمة»**.

وكتاباتهم. وقد **أطلقتُ على كل نمط إلحادى وخلل فى النموذج المعرفى اسما** يُعَبِّر عن سماته ويميزه عما سواه. وقد فندنا الكثير من هذه الأنماط **خلال فصول الكتاب السابقة**، لذلك سنكتفى هنا بالاختصار عند عرضها وتفنيدها:

1- الإلحاد الصبيانى

اعتدنا فى صبانا أن نتحاور مع أقراننا، وكان كلٌّ منا يحرص على استعراض قراءاته وإظهار ثقافته، وكنت كثيرًا ما أطرح على محاوريَّ سؤالًا: **إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟**[1]

وبالرغم من أن هذا التساؤل الصبيانى قد **قُتل بحثًا**، وحُسم على أيدى علماء الكلام المسلمين منذ ألف سنة، وأيضًا على أيدى رجال اللاهوت فى المسيحية، فإن الملاحدة فى بلادنا وعبر العالم **يعتبرونه الحجة المحورية** فى إلحادهم. ولا يقوم بهذا الطرح الصبيان فقط، بل كثير من الكبار أيضًا، حتى إن **ريتشارد دوكنز يُقيم كتابه «وهم الإله» على هذا التساؤل**!.

وملخص تفنيد هذه الحجة الإلحادية، أن كل موجود حادث لابد له من موجد (سبب)، وإذا تسلسلنا فى الأسباب لأعلى فسنصل حتمًا **لسبب أول وراء كل الحادثات ينبغى ألا يكون له موجد**، ويطلق علماء المنطق على استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية اصطلاح «**التسلسل يمتنع**»، ومن ثم يصبح السؤال عن سبب السبب الأول الذى لا سبب له **سؤال غبى**!. وإذا كنا **لا نستطيع «تصور»** موجود لا موجود له، فإن هذا «**الدليل العقلى المنطقى**» (التسلسل يمتنع) وكذلك «**الدليل العلمى**» المتمثل فى احتياج الكون والحياة والإنسان إلى مصمم ذكى **«يحتمان» الإقرار العقلى** بالإله كموجد أول.

إذًا **فقضية الإله الأزلى تُتعقل وإن كانت لا تُتصور**[2]. بل إن العلم المعاصر يقدم لنا مفاهيم لا يمكن تصورها ولكن ينبغى تَعَقُّلها إذ يؤكدها البرهان الرياضى، مثال ذلك ما تخبرنا به **نظرية الكوانتم** من أن الجسيم تحت الذرى يمكن أن يكون فى أكثر من موضع فى وقت واحد!.

(1) يبدأ د. مصطفى محمود كتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» بموقف مشابه كان يمارسه فى صباه... لا شك أن الميول الصبيانية تتشابه.

(2) فصلنا هذا المعنى فى الفصلين التاسع والرابع عشر.

2- إلحاد المراهقين

تُعتبر **فترة المراهقة** من أحرج الفترات فى حياة الإنسان. ففيها يبدأ المراهق فى **الشعور بذاته والثقة بنفسه وعقله، فيعتبر آراءه وأحكامه العقلية هى المرجعية التى يقرر فى ضوئها صواب وخطأ الآخرين، بل ويجعل من نفسه ندًا للكبار فيتمرد عليهم ويرفض ما لا يروق له من آرائهم وأفكارهم، كما تسيطر عليه الرغبة فى الظهور**. وقد أفرزت هذه الصفات (سواء تَخَلَّقَ بها المراهقون أو الكبار) عددًا من الأنماط الإلحادية، فاستحقت أن نطلق على كل منها اسمًا:

أ- إلحاد الندية والكِبر

ينظر المراهق (سواء كان فى سن المراهقة أو كان كبيرًا مثل دوكنز) إلى **الإله باعتباره رجلًا ذا قدرات خارقة (سوبر مان)**، فيحكم على أفعال الإله بمقارنتها بأفعاله هو.

فى المناظرة التى دارت بينى وبين قطب إلحادى، والتى أذاعتها إحدى الفضائيات، قال الملحد: فى يوم من الأيام قتلتُ باعوضة وتحديت الإله - إذا كان موجودًا - أن يقبل التحدى وأن يحييها!. يُعتبر **التحدى لإحياء الموتى** أحد أشكال الندية والكبر، وقد طرحه ملاحدة الأمم الغابرة على أنبيائهم، وكنت أظن أنه قد انقضى بانقضائهم، فإذا بالملاحدة المعاصرين يمارسونه بغباء. كيف يصير الأمر لو استجاب الله عَزَّوَجَلَّ لكل تحدٍ يطرحه ملحد؟ لا شك أن الحياة ستصير مهزلة، ويصبح الملحدون هم الآلهة[1].

ومن أمثلة الندية الخرقاء شكوى البعض من أن ليس هناك **«عقد»** بيننا وبين الإله يضمن أنه سيوفى بوعده لنا بالجنة إن أطعناه!.

ويؤدى الشعور بالندية إلى **فرض تصوراتنا على الإله**، من أمثلة ذلك تساؤل البعض: **ما الذى يستفيده الإله من عبادتنا له طوال عمرنا؟** لهؤلاء قلت: إن قواعد المنظومة (أو اللعبة كما يقولون) يضعها الإله الخالق، **وليس للعبد المخلوق إلا الطاعة والالتزام**. فأنت إذا شاركت فى لعبة كرة القدم مثلًا عليك الالتزام بقوانينها، ولا تستطيع أن تطبق فيها قواعد لعبة كرة اليد! وفى كل الأحوال فإن طاعاتنا لا تزيد فى مُلك الله عَزَّوَجَلَّ ولا تنقص منه معصيتنا شيئًا، والعبد هو المستفيد الأول والأخير.

(1) فندنا هذا التحدى بالتفصيل فى الفصل العاشر عند حديثنا عن منهج ريتشارد دوكنز الفلسفى.

ب- إلحاد التمرد

فى مناظـرتى التى بُثَّت فضائيًـا، أراد الملحد إظهار إعلائه لقيمة الحرية، فقال: **إنى مسـتعد أن أدخـل النـار حـرًا ولا أدخـل الجنة عبدًا للإلـه**!. إن تمرد هـذا الملحد ليس بسـبب اعتزازه بالحرية ورفض العبودية، فقد خاطب رفيقته من خلال موقعه على شـبكة المعلومات قائلًا لها «**معبودتى**»! إنه تمرد على العبودية للإله بالتحديد.

إن جوهـر المشـكلة التى تولد إلحـاد الندية والكبر وكذلك التمرد، إنـه **لا يمكن قياس علم وأفعـال الإلـه المطلق الأزلى الأبدى الذى لا يحده الزمان ولا المكان ولا منظومة الأسـباب على علـم وأفعال الإنسـان المحدود المحكوم بالأسـباب.** وقد أدت هذه الفـوارق إلى أن الإله **ليس كمثله شىء**، أى أنه مختلف تمامًا عن البشر، ومن هذه الاختلافات أنه لا يفعل لغاية أو احتياج مثلما يفعل الإنسان.

لقد سـقط **إبليس اللعين** فى هذه الخطيئة المعرفية، فتمرد على الإله، وجعل من نفسـه ندًا له وَحَكَـمًا عـلى أوامره عَزَّوَجَلَّ ورفض السـجود لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدعوى مخالفـة أوامر الله عَزَّوَجَلَّ لمنطقه الإبليسى؛ فإبليس من نار وآدم من طين!.

جـ- إلحاد خالِف تُعرَف

أخبرنى الأب أن ابنه فشل فى تحقيق ما حققه أخوته من تفوق فى مجال الدراسة، وأخيرًا مال إلى الحديـث مـع الآخرين فى قضايا الألوهية، ثم تبنى الإلحاد بشـكل كامـل. وعندما حاورت الفتى لمسـت **فخره** بأن ذلك جعله حديث المدرسة، طلابها ومدرسوها، وجعله يجالس ويحاور عددًا من العلماء والمفكرين بعد وساطة والده على أمل أن يردوه عن إلحاده.

إن مخالفة أعراف المجتمع ومفاهيمه وقيمه المستقرة هى أيسر الطرق لتحقيق **ذيوع الصيت والشهرة** بين الأقران وأمام الآخرين[1].

(1) يجسـد هـذا المعنى موقف الدكاتـرة زكى مبارك. فقد هاجم الإمام الغزالى فى رسـالته للماجسـتير التـى كان عنوانها «الأخـلاق عند الغـزالى». وبعد أن صحح ذكى مبارك مسـاره وأدرك قيمة المنهج الإسـلامى كتب فى مقدمة رسـالته للدكتوراه وموضوعها «التصوف الإسـلامى»: «إليك أعتذر أيها الغزالى، قصدت مهاجمتك حتى أشـتهر، **فالشهرة قد تأتى على أكتاف العظماء**». عن كتاب «المعارك الأدبية، للأستاذ أنور الجندى».

د- إلحاد الاستغناء

شكى لى الوالدان أن ابنهما قد تبنى الإلحاد و يدعوهما إليه، وأنه يرفض أن يتحاور مع أحد؛ لأنه **«مبسوط كده»**. أرسلت إلى الفتى مع والديه؛ أدعوه لمحاورتى، فإن أقنعنى برأيه سأدعم موقفه وأقنع به والديه. أما إن كان على خطأ فليعلم أن تمسكه بموقفه سيكلفه ما لا طاقة له به فى الدنيا والآخرة. وافق الفتى على دعوتى، والتقينا. قال لى: **إن حياتى سعيدة مستقرة مع إلحادى، فلماذا أشغل نفسى بقضية الألوهية والدين فى الوقت الذى لا أشعر بحاجة إلى الإيمان بها؟**

قلت له، ما تقول فى **الطالب الذى لا يستذكر دروسه؛** لأن حياته سعيدة مستقرة دون مذاكرة؛ ولأنه لا يشعر بحاجة لبذل الجهد والمعاناة فى ذلك؟. إن هذا الطالب لا يستحضر أن هناك عواقب لحياته السعيدة تلك! ألا ينبغى على والديه ومدرسيه أن يوجهوه إلى ما فيه مصلحته، حتى و إن كانت المذاكرة على غير هواه، وحتى إن كان لا يدرك أهمية ذلك الآن؟.

وأضفت؛ لا ينبغى أن يحيا الإنسان تبعًا لما يحقق له السعادة وفقط، ولكن **ينبغى أن يحيا تبعًا لما يمليه عليه العقل، و ينبغى أن يحدد كيف يكون مساره بعد أن يدرك مصدره ومآله**. وأنهيت التمهيد للجلسة قائلًا: **إن الحياة تبعًا لما يمليه «الهوى» هى حياة المراهقين،** أما حياة الناضجين فتتبع العقل، ومن ثم فإن «الاستغناء» الحالى ليس مبررًا لعدم الإيمان.

اقتنع الفتى بمنطقى وَقبِل أن يدخل معى فى حوار.

3- إلحاد الربوبية

يشبه هذا النمط من الإلحاد ما كان سائدًا فى مكة وقت البعثة المحمدية. فقد كان معظم القرشيين يؤمنون بوجود الإله لكنهم ينكرون أن يكون قد أرسل رسولًا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

فيقول هؤلاء: نقر بوجود الإله، أما الأديان فادعاءات سببت كل ما فى الدنيا من شقاء، ولا حاجة لنا بها. و يضيف آخرون: **ما دليلكم على أن الإله قد خلقنا لغاية،** لِمَ لا يكون قد خلقتنا وتركنا؟ وكيف ينشغل بتفاهات مثلنا؟ هل هو فى حاجة إلينا؟.

أجبت هؤلاء: **إن الإنسان إذا أقدم على فعل شىء دون سبب عددناه أبله،** فهل يُعقل أن يخلق الإله الوجود والإنسان دون حكمة أو غاية؟!.

وأضفت: أن الباحث عن الحقيقية **يرحب بأى عون يأتيه**، لذلك كان خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (وغيره من الأنبياء والمرسَلين) يتفرس فى السماء باحثًا عن الإله، وفى النهاية قال: ﴿...لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام].

و إذا كنا مخلوقين لغاية ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إليها عن طريق الديانات السماوية.

وحقيقة الأمر أن «القائلين بالربوبية المنكرين للديانات» هم و«الملاحدة» سواء بسواء، إذ إن **إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها**؛ الذى هو تكليف الإنسان عن طريق الدين بأوامر ونواه، وما يعقب الموت من بعث وحساب وجزاء[1].

4- إلحاد الجبر والتسيير

قال بعضهم: كان ينبغى على الإله أن يأخذ رأيى قبل أن يخلقنى! وبأى حق يحاسبنى إن لم أعبده، **ألستُ حُرًّا**؟ «إزاى يحاسب واحد على لعبة هو مش عاوز يلعبها»؟

لهؤلاء قلت: لو مش عاجبك **أنسحب من اللعبة!** قال: كيف؟ قلت: **بالانتحار!** وليس هناك عاقبة تخشاها فأنت لا تؤمن بالبعث والحساب. وأضفت: إن عدم إقدامك على الانتحار لهو أكبر دليل على رضائك عن خَلْقِه لك، حتى إنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة و يسرة عدة مرات حفاظًا على حياتك. أَفْحَمَته حجتى فقال: ربما يكون هناك شئ مما تقول، عندها سيعذبنى إلهك، إنه يعاملنا كالعبيد. قلت له: أخيرًا وصلت إلى الحقيقة. **فعلاقة الله بنا هى علاقة السيد بالعبد**، وهذا ما تحاول دائمًا التملص منه بادعاء الندية. والعدل يقتضى أن يكون الإله الرحمن الرحيم أيضًا منتقمًا جبارًا مذلًا. وأضفت، إن الإسلام يتبنى هذا المفهوم **الذى يجمع بين الجمال والجلال**، ولا يكتفى بأن «الله محبة» كما يعتقد المسيحيون، أو أنه «غضوب» فقط كما يعتقد اليهود. **فلله الأسماء الحسنى جميعًا، جمالها وجلالها، ومن لم يعرف ذلك فمعرفته بالإله ناقصة.**

وشكى بعضهم أن الإله يحاسبنا على اختياراتنا بالرغم من أنه فرض علينا أشياء، كالعائلة والبلد والمرض وأحداث كثيرة مما يمر بنا. قلت لهؤلاء؛ إن الله لا يحاسبنا على هذه الأشياء، **الحساب لا يكون إلا على ما فيه مجالًا للاختيار**، و يرجع ذلك إلى أن حرية الإنسان مقيدة

(1) نتعرض لهذا المفهوم بالمزيد من التفصيل فى الفصل الرابع عشر.

وليست مطلقة، ذلك لأن قدراته ليست مطلقة، **فحرية الإرادة بقدر المقدرة**، لذلك تزداد حرية الإنسان فى عمله بقدر ارتقائه فى السلم الوظيفى، أليس كذلك؟!.

ويتهم الملاحدةُ المؤمنينَ بأنهم **جبريون**، إذ يؤمنون أن الله دَوَّنَ كل ما سيقع حتى يوم القيامة فى لوح محفوظ وأننا ملزمون بأن نتبع ما دَوَّنه، ويرى الملاحدة أن هذا **جبر محض** وظلم بَيِّن. قلت لهؤلاء: **إن «العلم الإلهى» الذى لا يحده الزمان كاشف لما سيحدث وليس مُلزِمًا.** ولنوضح ذلك نضرب مثالًا: تصور إنسانًا اخترع آلة الزمان، وتقدم بها مائتى عام فى المستقبل، ورأى ما سيفعله أحفاده، ثم عاد لزمانه ودَوَّنَ ما رأى، هل ما دَوَّن الرجل مُلزِم لهم أم أنه دَوَّن ما صدر منهم بالفعل. هذا هو حال **العلم الإلهى الكاشف**. ولا يتعارض ذلك مع إرادة الله عَزَّوَجَلَّ المطلقة، فقد **أراد الله** عَزَّوَجَلَّ **أن تكون لنا إرادة.**

5- إلحاد الإله العاجز

قال لى الشاب الملحد، وقد علت وجهه ابتسامة خبيثة: هل يستطيع إلهك أن يخلق إلاهًا **أكبر منه أو أقوى منه**؟ وهل يستطيع أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟

ظن ذو الابتسامة الخبيثة أنه قد وضعنى فى مأزق؛ فإن قلت إن الله عَزَّوَجَلَّ يستطيع، فإنى بذلك أنفى أنه الأكبر والأقوى. وإن تهربت من هذا الاستنتاج بأن قلت إنه لا يستطيع، كنت أُثبت على إلهى العجز، حاشاه.

قلت للشاب، إن كلًّا من سؤاليك ينطوى على **تعارض بديهى**، ومن ثم يناقض نفسه ولا يجوز طرحه. وأضفت، إنك تطلب مستحيلات عقلية، كأن ترسم دائرة مربعة! فكيف تطلب أن يخلق الله إلاهًا (سواء أكبر وأقوى أو أصغر وأضعف) بينما الإله لا ينبغى أن يكون مخلوقًا؟! وكيف تطلب أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها، بينما كل مخلوق يستمد صفاته من خالقه، ولا يمكن بداهة أن يكون الفرع والجزء أكبر من الأصل والكل. إن سؤاليك سؤالين **مستحيلين عقليًّا**.

اختفت الابتسامة الخبيثة وعلا الشحوب وجه الشاب.

6- إلحاد الإله المخادع

قال الملحد: تَدَّعون أن الإسلام هو الدين الحق، فكيف يرسل الإله لأقوام رسلًا **بديانات**

فاسدة؟ ولماذا **ركز الديانات كلها فى منطقة الشرق الأوسط** بينما حَرَمَ أقوامًا آخرين من الديانات تمامًا[1]؟. وبعد ذلك يحاسب ربكم البشر ويُدخل النار أقوامًا لا ذنب لهم. إن إلهكم الذى تَدَّعون إله ظالم مخادع.

لقد جهل هؤلاء بديهيات الدين، **فالرسالات السماوية جميعها هى الإسلام**، ليس فيها دين حق ودين باطل، وقد كُلِّفَ أتباع الرسالة الخاتمة أن يبينوا لأصحاب الرسالات السابقة ما اعترى رسالاتهم من تحريف.

كذلك لم يترك الله عَزَّوَجَلَّ أمة دون أن يرسل لها رسولًا ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]، بل ما كان الله ليعذب من لم تصله الرسالة ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

إن الله عَزَّوَجَلَّ ليس بمخادع، بل الملاحدة هم الذين يخدعون أنفسهم.

7- إلحاد الإله الظالم القاسى[2]

يبلغ الإلحاد السفسطائى مداه بادعاءات تصف الإله بالظلم. فيقول بعضهم: كيف يعاقب إلهكم الرحمن الرحيم الإنسان على **معاصٍ يرتكبها فى حياته القصيرة** (وإن كثرت) **بعذاب أبدى لا يحتمله بشر.**

قلت لهذا المعترض: ولماذا لم يدهشك **عِظَم الثواب والنعيم** فى جنات تخلد فيها مقابل طاعات قليلة؟! إن حجتك تصبح ذات قيمة إذا كان عِظَم العقاب يقابله فقط النجاة من العقاب فى حالة الطاعة، إلا أن **عظم العقاب يقابله عظم الثواب**. ولم يكتف الإله بذلك، بل **دلك على طريق الجنة** وأعانك على السير فيه **وتعهد بأن يُبَدل سيئاتك حسنات فى حال التوبة** من المعاصى. وأضفت: إن الإنسان إذا سب كلبًا أزعجه فله العذر، أما أن يُهين والديه فلا عذر له. أعنى لا تنظر فقط إلى عِظَم المعصية، **لكن انظر فى حق مَن أُرتكبت المعصية.**

أجابنى الشاب الملحد قائلًا: لقد تكررت **كلمة العذاب** بمشتقاتها فى قرآنكم قرابة أربعمائة

(1) يُسمِى بعضُ الملاحدة ذلك: «سوء توزيع الديانات»!

(2) تعتبر «مجادلة الشر والألم» أحد أمثلة إلحاد الإله الظالم القاسى. ولمنزلتها المحورية فى الفكر الإلحادى (خاصة الغربى) سنفرد لها عرضًا منفصلًا فى الفصل الرابع عشر.

مـرة، ربمـا أكثر من أى كلمة أخرى، أليس هذا دليلٌ على القسـوة الشـديدة؟. قلت له؛ إنك تقلب الأمـور وتجعـل الرحمة قسـوة، أما كان ينبغى أن تقـول إن الله حذرنا أربعمائة مـرة، وفى كل مرة وصف لنا طريق النجاة. وضربت لذلك مثالًا: ما قولك فى أم تنبه أولادها ـ كلما خرجوا من المنزل ـ أن يأخذوا حذرهم عند عبور الطريق؟ هل تصف هذه الأم بالقسوة؛ لأن تحذيرها يجعل أولادها يستحضرون فى أذهانهم احتمال الإصابة فى حادث؟! أم أن سلوك الأم هو **عين الحب والرحمة؟.**

وأضفت قائلًا: هل تنتظر من الله عَزَّوَجَلَّ أن يربت على أكتاف حفنة الشـيوعيين (سـتالين وماوتسى تونج و...) الذين قتلوا قرابة 94 مليون شـخصًا لينشروا مذهبهم الإلحادى الفاسـد؟! وهـل تنتظر من اللـه عَزَّوَجَلَّ أن يلتمس العذر لهتلر الذى قتل قرابة ثلاثين مليون شـخص لأن حياته كانت قصيرة؟!.

أصر الشـاب على عناده وقال: كيف **يطلب إلهكم من نبيه إبراهيم أن يذبح ابنه**، أى قسـوة تلك أن يُطلَب من أب مُسـن أن يذبح وحيـده الذى رُزق به على كِبَر؟ قلت له: هل طُلب منك مثل ذلك؟ أجابنى بلا. قلت: وهل طُلب ذلك من إنسـان آخر سـوى إبراهيم؟ فقال لا. فعَقَّبت شارحًا الموقف: إن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ادعى (عن حق) أن ليس أحدٌ أو شىء أحب إلى قلبه من اللـه عَزَّوَجَلَّ، فكان طبيعيًّا أن **يُختبر فى هذا الادعاء السـامق** بمثل هذا الطلب القاسى، وقد كان الطلـب ذبحًا لتعلـق إبراهيم بابنه. ومـا كان الله عَزَّوَجَلَّ ليدع إبراهيم يقتـل وحيده، بل كان جـزاء إخلاص إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن صار خليـلًا للرحمن وأن أصبح موقفه هذا عيدًا تحتفل به البشرية كل عام حتى يوم القيامة.

وأضفـت: بعد ذلك كله، فإن **قسـوة الإله وظلمه ليسـت حجة ضد وجـوده، بل قد تكون حجة ضد رحمته**، ومن ثم فهى ليسـت حجة للإلحاد. وحاشـا لله أن يكون ظالمًا أو قاسـيًا، بل حاشـاه أن يكون عادلًا! فهو الرحمن الرحيم. لكنها **الرحمة الحقيقية الإلهية المطلقة**، وليسـت رحمة الضعف البشرى، فلا ينبغى أن نقيسها بمقاييسنا.

8- إلحاد التعنت والسَّفَه

قال الشاب لى: كيف يعطينى الإله **غرائز** ثم يطالبنى ألا أستعملها؟ وكيف يطالبنى أن **أخسر نقودى** باسم الزكاة، وأن **أخسر وقتى وجهدى باسم الصلاة**، وأن **أخسرها جميعًا** باسم الحج والعمرة؟

قلت له: إن الإنسان ليس بهيمًا تحركه الغرائز فقط. إن ما طُلب منا هو **توجيه هذه الغرائز وترشيدها**، وفى ذلك ترقية للنفس وسمو للروح.

إن الملاحدة إذ يدعون إلى **إطلاق الغرائز** يشبهون الصبية الذين يريدون أن يتفرغوا للعب وفقط، بينما يُلزمهم والداهم بإنفاق بعض الوقت فى مذاكرة دروسهم لما فى ذلك من مصلحة لاحقة.

وإذا كان الماديون يرفضون إنفاق بعض المال والوقت والجهد فى سبيل الله ويعدون ذلك سفهًا، فما بالُ فريقٍ منهم ينفقها فى سبيل المجتمع استجابة لتعاليم الشيوعية؟!

9- إلحاد عدم التصور

قال لى شاب ملحد: لا أستطيع تصور الإله الموجود الذى لا موجد له، ولا الموجود الأزلى الأبدى، ولا الموجود فى كل مكان ولا مكان، ولا أتصور أن يكون للإنسان إرادة مع طلاقة الإرادة الإلهية. ثم أردف قائلًا: **كيف تطالبنى أن أؤمن بإله أنا عاجز عن تصوره وتصور أفعاله.**

نكرر هنا أن أُس البلوى فى قضية الإلحاد هو أن نزن **العلم والفعل الإلهى المطلق بميزان العلم والفعل البشرى المحدود.** هنا تنشأ عدم القدرة على التصور ومن ثَمَّ يحدث الإنكار.

10- إلحاد المحامى الفاشل

من أقوال الشيخ محمد الغزالى التى أصاب بها كبد الحقيقة ـ وما أكثر ما فعل ـ قوله: إن الإسلام **قضية حق محاميها مقصر خائب.** إن كثيرًا ممن حاورت من الملاحدة الشباب **عاتِب بشدة على الخطاب الدينى**، خاصة بعد ثورات الربيع العربى، وعاتب أيضًا على **أداء تيار الإسلام السياسى**، وكانت الخطوة التالية أن حَمَّل الإسلام كدين أخطاء هذه الممارسات.

إنه خطأ معرفى أن **أُعمم التقصير**، فأنتقل به من عيب الممارسة إلى عَوَار المنظومة كلها. ما أشبه ذلك بمريض حدثت له مضاعفات صحية عقب عملية جراحية، فأصبح يُشكك ليس فقط فى قدرة الأطباء والجراحين بل وفى جدوى الطب والجراحة.

11- إلحاد تحصيل الأهداف

قال لى: أليس الغرض من الأديان حث البشر على **تعمير الأرض**، وحثهم على أن يعامل بعضهم بعضًا **بخُلق حسن**؟ وأضاف: نحن نجد أممًا ملحدة تلتزم بهذين الهدفين إلى أبعد الحدود، كما

نجد أفرادًا ملاحدة أكثر التزامًا بالهدفين من كثير من المتدينين. **فما لزوم الدين؟** وكيف يدخل رجال عظماء قدموا للبشرية خدمات جليلة مثل نيوتن وفولتا وماكسويل وأينشتين النار؟[1]

قلت له: هذا الادعاء من أكبر الأخطاء وأكثرها شيوعًا عن **دور الدين**. إن تعمير الأرض والخُلق الحسن **ليسا هدفين للدين لكنهما فى الحقيقة وسيلتان! فهدف الدين** أن يُعَرِّف الإنسان بربه أولًا، ثم بمصدره ومساره ومآله، ولا يتحقق حُسن المآل إلا بتحصيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ. والسبيل إلى تحقيق ذلك تعمير الأرض والخُلق الحسن، بشرط أن تكون أفعال العبد **ابتغاءً لمرضاة الله** عَزَّوَجَلَّ. أما إن لم نضع هذه الغاية فى اعتبارنا، فستظل أفعالنا ـ مهما حسنت ـ بعيدة عن أن تحقق للإنسان حسن المآل، وعلى الإنسان أن **يُحَصِّل مكافأته ممن عمل لأجلهم.**

وأضفت قائلًا لمحاورى: إن ما ذكرتُ لك هو دور الدين الأساسى، أما أن تسألنى عن أشخاص بعينهم أَهُمْ من أهل الجنة أم من أهل النار؟ أجيبك قائلًا **إن مفتاح الجنة** ليس بيدى أو بيد أحد من البشر، والأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ.

12- الإلحاد الحسى

قال لى فى المناظرة التى أذاعتها الفضائيات: إن الوجود الإلهى قضية فى منتهى الأهمية، ولا بد أن يكون الدليل عليها مناسبًا لها فى القوة، لذلك ينبغى أن يكون دليلًا حسيًّا أو تجريبيًّا. بل إننى إذا التقيت بالإله فى الطريق وصافحنى فذلك غير كاف! فعليه أن يثبت لى أنه هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو... **كيف تريدنى أن أصدق شيئًا لم أره؟.**

قلت له: إن كلامك هذا ملىء بالأخطاء العلمية، **فالدليل الحسى الذى تطلبه هو أضعف الأدلة!** فالحس خادع. ألا ترانا نبصر قوس قزح ونبصر السراب وهما ليسا موجودين! وفى نفس الوقت فإننا لا نبصر أشياء أثبت العلم وجودها، كالجاذبية والثقوب السوداء. أما **الدليل التجريبى** فلا يُستخدم إلا فى العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء، وعندما تطلبه فى قضية الألوهية فإنك **تطلب دليلًا فى غير موضعه**، كالذى يريد أن يبصر بأذنيه![2] لذلك فإن الأدلة الأقوى فى الاستشهاد على الألوهية هى **الأدلة الرياضية والعقلية.**

(1) هؤلاء العلماء الأربعة الكبار الذين استشهد بهم الملحد كانوا عميقى الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ!!
(2) عرضنا أنواع الأدلة العلمية ومدى حجيتها فى الفصل الثانى.

أمـا إذا التقيت بالإله وأحيا أمامك الموتى فسـتقول إن ذلك لا يدل على الألوهية، فالعلم قد يثبت فى المسـتقبل أن ذلك ممكنًا! وقد سـبق أن قال أمثالك عن أنبيائهـم الذين قدموا لهم هذه المعجزات أنهم **سـحرة. فالعلم المسـتقبلى بالنسبة لك هو إله سـد الثغرات** الذى تقول به كلما واجهت دليلًا على الألوهية لا يمكنك رده.

13- إلحاد الشهوات[1]

يُبتعَث الكثير من شبابنا إلى دول العالم الغربى والدول الشيوعية (سابقًا)، ويعاينون نمطًا من الحياة تحتل فيه **العلاقات الجنسـية** خارج إطار الزواج موضعًا محوريًّا باسـم الصداقة والحب. كذلـك فـإن هذا النمط من الحياة يدخل بيوتنا عن طريق الإعلام والسـماوات المفتوحة، كما تعرض المواقع الإباحية على الشباب كَمًّا كبيرًا من المثيرات.

نتيجة لذلك، يَطُوق بعضُ شـبابنا إلى هذا النمط من الحياة. وقد تُمثل التنشئة الدينية حاجزًا أخلاقيًّا وعبئًا نفسـيًّا يؤرقهم، **فيلجأ بعضهم للهروب من هذه المعاناة إلى إسـقاط منظومة الإله والدين من حياتهم** بالتنكر لها.

لذلك لا نجد هذا النمط من الإلحاد فى العالم الغربى، فلا مشـكلة عند شـبابهم فى **الجمع بين الإيمان الدينى وبين الحياة المتحررة أخلاقيًّا**.

14- إلحاد عقدة النقص

عقـب الحلقـة الأولى من مناظرتى مع الملحد التى أذيعت إعلاميًـا، اتصل بى صديق وأخبرنى أن ابنه الذى سـبق أن ألحد طلب منه أن يصلى معه العصر، وعندما سـأله عن سر تصحيح موقفه بالرغـم مـن أن المناظرة ما زالت فى بدايتها، قال الابن: عندما كنا نشـاهد هـذا الملحد وغيره فى «النـت» **كانوا يشـعروننا أنهم هم الحكـماء** الذين يحتكرون العقل ويرتكـزون على العلم، أما الديـن ورجاله فهـم المتخلفون علميًّا والعاجـزون عقليًّا وأنهم لا يحسـنون إلا ترديد ما جاء فى التراث، فأصبحوا خارج الزمان وخارج الحضارة. وأضاف الفتى، أما وقد شـاهدت الجزء الأول

(1) أطلـق الشـيخ عبـد الحليم محمود، شـيخ الجامع الأزهر الأسـبق، على هذا النمـط من الإلحاد اصطـلاح **إلحاد البطن والفرج**.

مـن المناظرة وعاينت قوة حجج د. عمرو العلمية والفلسـفية وعجز الملحد أن يدفعها، تأكد لى **كم هم أقزام ومدعون**، وأدركت أن **الدين عظيم وأن حججه لا تُدفع بشرط أن يُحَسـنَ عرضُه.**

5- إلحاد نقض العهد

قال لى: تَدَّعون أن إلهكم أخذ علينا عهدًا فى **يوم الذر** بأن نعبده، لكننى ولا أنت ولا أحد من البـشر نذكر هذا العهد، فكيف يجعل الإله هذا العهد الذى تَرَكَنا ننسـاه حجة علينا و يدخلنا النار إن خالفناه؟

قلت له: أَقبل حجتك لو أن سـيناريو الأحداث سـار كما تدعى، لكن الأمر ليس كذلك. فنحن قد تعلمنا الدرس و إن كنا قد نسـينا الموقف، فالعهد ما زال قائمًا فى نفس كل منا، متمثلًا **فى الفطـرة السـليمة المدرِكة** لوجـود الإله. كذلك وضـع الله عَزَّوَجَلَّ **أدلـة الألوهية فى الكون والأنفس**، وأرسـل **الرسـالات السماوية** تسـتحث العقل ليتأمل هذه الأدلة، وتُذَكِّر الإنسان بما نُسِيَ من العهـد وطُمس من الفطـرة، لذلك حفل القـرآن الكريم بالدعـوة إلى التذكر، بل إن الرسول الكريم ﷺ إنما بُعث مُذَكِّرًا: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية].

16- إلحاد البساطة

قال لى الشـاب الملحد: إنكم أيها المتدينون تنظرون إلى الإنسـان نظرة شديدة التعقيد، لقد أدخلتمـوه فى دهاليـز غيبية وصلت بكـم إلى افتراض تواصله مع إله سـماوى! بينما هو **كائن بسيط مثل باقى الحيوانات!** يعمل و ينتج و يستهلك و يستمتع وفقط.

قلت للشـاب: إن نظرتك هذه هى سـبب مأسـاة إنسـان الحضـارة المعاصرة، وقد شَـخَّصَ د. عبـد الوهاب المسـيرى هذه المأسـاة قائلًا: إن الحضـارة الحديثة حضـارة عقلانية مادية (لا عقلانيـة وحسـب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا- العلم - السـيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتهـا المادية التى تطلبت اسـتبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسـانية (العناصر غير المادية)، **وذلك لتبسـيط الواقع بهـدف التحكم فيه** (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسـيط). لا شـك أن **الإنسـان هو الضحية الأولى لهذا التبسيط**، فبعد أن تم اسـتبعاد عناصره الأخلاقية والإنسانية الراقية لم يبق منه إلا ماديته، فَسَهُل على البعض نسبتها للطبيعة العمياء.

وقد أثبتنا عبر فصول الكتاب السابقة عجز الطبيعة عن تفسير الوجود والإنسان، ولم يتبق إلا القول بالإله الخالق.

17- إلحاد الإله الآخر

أمعـن بعضُهم فى العبثية، فقال: ما أدرانى أن الله الذى تدعونى إلى عبادته هو الخالق والرازق والشافى و...؟ لم لا يكون الفاعل لهذه الأشياء إله آخر أو آلهة متعددون آخرون؟ قلت (وداخلى سـخرية لم أظهرها له): قد يكون طرحك مقبولًا إذا كنا قد التقينا فى الشـارع بإله ادعى أنه هو الخالق والرازق والشـافى و... وطالبنا أن نعبده دون أن يقدم لنا الدليل، لكن الأمر ليس كذلك!

حقيقـة الأمر أننا عايَنَّا أفعال الخلق والرزق والشـفاء و...، وأدركنـا أن لا بد لها من فاعل عظيم منزه. ثم كان أن قُدِمَت إلينا ديانات سـماوية خاطَبَنَا بها مَنْ قال **«إننى أنا الله»**، ونسـب هذه الأفعال لذاته، وطالبنا أن نعبده. ألا ترى أنه لو كان هناك آلهة أخرى هى الخالقة والرازقة والشـافية و... لوجب عليها ألا تسـكت على هذا الادعاء وأن تبين لمخلوقاتها الحقيقة، بل وأن تصفى حساباتها مع هذا الدَّعى!.

أمـا قضية **تعدد الآلهة**، فإن كان لها موضع عنـد المشركين قديمًا، فقد **أثبت العلم** بما لا يدع مجـالًا للشـك أن **الخالق واحـد**. ذلك بعد أن توصلنـا إلى أن قوانين الطبيعة واحـدة، وأن المادة الخام التى يتشكل منها الوجود واحدة، وأن نمط الخلق واحد من الذَّرة إلى المجرة. هذا بالطبع بالإضافة إلى **الأدلة الفلسفية والعقلية** التى تسوقها الكتب السماوية على التوحيد.

18- إلحاد الشبهات

يركز كثير من الملاحدة الشبان فى هجومهم على الألوهية والدين على **التشكيك فى مصداقية القرآن الكريم وكتاب المسيحيين المقدس**، وينكرون نسبتهما إلى الله عَزَّوَجَلَّ. ويدور التشكيك حول عدد من النقاط أهمها:

- ❐ تُعتبر **نظرية التطور الداروينى** أهم الأعمدة التى يستند إليها الملاحدة. فهى بزعمهم تنفى الاحتياج للإله، كما تثبت خطأ مفهوم الخلق الخاص الذى تطرحه التفاسير التراثية للقرآن الكريم وسفر التكوين فى التوراة.

- تتحدث العديد من كتب التفسير عن **آية السيف** التى تنسخ عشرات الآيات التى تؤكد حرية العقيدة فى القرآن الكريم، بل وتصل إلى حد قتل من لا يؤمن بالإسلام، مما يدمغ الإسلام بالإرهاب.
- تجعل الكتب السماوية **للقلب** دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية، بينما يؤكد العلم أن القلب ليس إلا مضخة للدم.
- تتحدث الكتب السماوية عن عدد من **المفاهيم التى لا يقر بها العلم؛** كالسماوات السبع، وأن الشهب والنيازك رجوم للشياطين، وأن الشمس تختفى من السماء بانتهاء النهار لتسجد تحت عرش الرحمن و...
- تشتمل الكتب السماوية على **أحداث لا يمكن تقديم الدليل على صحتها،** كطوفان نوح وأهل الكهف، والتقام الحوت ليونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقوم يأجوج ومأجوج، والطفل الذى تلده العذراء دون أب، و...
- يدعى الملاحدة أن **الكتب السماوية اقتبست بعض الأحداث** السابقة (كطوفان نوح وحوت يونس) من الأساطير السابقة عليها.
- أباح القرآن الكريم عددًا من **السلوكيات التى لا ينبغى أن تتبناها ديانة سماوية،** كالرق وملك اليمين والرجم وقطع يد السارق. كما أباح لرسول الله ﷺ من الزواج ما لم يبحه لأتباعه.
- كانت حياة المصطفى ﷺ **مليئة بالحروب والغزوات وسلب الغنائم**، وبعد ذلك قام صحابة الرسول الكريم ﷺ وأتباع دينه بنشر الإسلام بالسيف.

لتفنيد هذه الدعاوى، نقول إن العلم قد صار الآن يتبنى مفهوم **«التطور البيولوجى الموجه»** الذى يتماشى مع الدين[1]. كما أثبت العلم أن **للقلب دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية،** وإن كان هذا الأمر فى حاجة إلى المزيد من الدراسة[2]. كذلك فإن **القصص**

(1) جاءت تفاصيل ذلك فى الفصل السادس عند حديثنا عن الداروينية.

(2) لتفاصيل هذا المفهوم راجع فصلاً بعنوان القلب والتدين، فى كتاب «رحلة عقل» للمؤلف، نيوبوك، الطبعة العاشرة، 2017.

المشتركة بين الكتب السماوية والأساطير إنما بقيت كأساطير عند الشعوب بعد **أن نزلت بها كتب سماوية** فى معظم الحضارات.

أما دعوى **استباحة دماء الكفار** فترد عليها الآية 190 من سورة البقرة، التى تؤكد أن مناصبة العداء إنما تكون لمن يقاتلون المسلمين: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

أما **اصطلاح «السماء»** فى الكتب المقدسة فهو **مرادف لـ «الكون»**، فلو وضعنا لفظ «الكون» بدلًا من «السماء» فى القرآن الكريم لاستقام المعنى تمامًا مع المفاهيم العلمية، لكن القرآن استخدم اللفظ المعتاد والمشهور بين العامة وأيضًا بين العلماء. **أما السماوات السبع والأراضين السبع** فمفاهيم غيبية لا ينبغى البحث عن تفسير علمى لها.

وهناك عدد من المفاهيم ينبغى النظر إليها باعتبارها **مفاهيم رمزية**، كسجود الشمس تحت عرش الرحمن بمعنى انقيادها للسنن والقوانين الكونية، وهناك عدد من المفاهيم التى طرحها القرآن الكريم ولم نتوصل لرمزيتها بعد.

أما وقوع **أحداث محلية فى بعض بقاع الأرض**، كأهل الكهف ويأجوج ومأجوج وغيرها، فأمور لا يُتوقع أن تترك أدلة تاريخية تشير إليها، بل ينبغى اعتبارها من الأحداث التى تُعرَف بالرواية، فالقرآن الكريم يرويها لنا كما تروى لأولادك أحداثًا وقعت لأجدادك، لا أظنهم سيطلبون عليها دليلًا تاريخيًّا.

أما **باقى الشبهات**، كانتشار الدين بالسيف وغزوات الرسول ﷺ والرق وما ملكت اليمين وقطع يد السارق وزوجات الرسول ﷺ، فقد تكفل **العديد من كتب رد الشبهات** بطرح الأدلة على كذب بعضها وحكمة الإسلام فى التعامل مع بعضها الآخر.

وأحيانًا يُعرض على شبابنا **نمطٌ خاص من إلحاد الشبهات**، فيقال للشاب ينبغى أن تؤمن بالإله فهو حق، والأدلة العلمية على وجوده كثيرة، أما القرآن فلا؛ فهو ملىء بالأخطاء. فى هذا النمط يتم الإقرار بالإله مع إنكار الإسلام، وقد تكون الخطوة التالية هى: إذًا فلنبحث عن الدين الحق، ويكون ذلك مقدمة للدعوة إلى اعتناق المسيحية؛ إذًا فهى **محاولات تنصيرية**.

هذه هى أكثر أنواع وأسباب الإلحاد التى نقابلها بين شبابنا شيوعًا، **وكلها خاضعة للردود والدفوع العقلية**. ولا شك أن **الشيطان والنفس الأمارة بالسوء** لن يتوقفا عن محاولات التملص من هذا الخطاب العقلانى الصِرف بما له من حجية قوية، كما لن يتوقفا عن طرح أشكال وحجج أخرى للتهرب من الإقرار بالألوهية والدين.

القارئ الكريم...

قمنا فى هذا الفصل بعرض مختصر لمسيرة الإلحاد فى العالم الإسلامى عبر التاريخ، ولعلك لاحظت ـ كما ذكرنا ـ أن دور المفاهيم والحجج العلمية فيه قليل، خلافًا لما نرصده فى الإلحاد الغربى، بدلًا عن ذلك تشيع فيه **عوامل نفسية** عديدة تصب معظمها فى الرغبة فى التملص مما تفرضه الديانات من التزام أخلاقى، لذلك أحسبنى كنت مصيبًا حين أطلقت على الإلحاد المعاصر فى بلادنا اسم **«الإلحاد السفسطائى»**.

وقد كانت وقفاتنا مع فكر ابن الراوندى ثم إسماعيل أدهم ثم عبد الله القصيمى **رحلات عبر الجغرافيا والتاريخ**، امتدت من العراق فى القرن التاسع الميلادى، إلى مصر فى مدخل القرن العشرين، إلى السعودية فى ختام هذا القرن، فكانت جولة مع فكر أشهر ثلاثة ملاحدة فى العالم الإسلامى. ولا ينبغى أن نختم عرضنا للفكر الإلحادى فى بلادنا (سواء العرض التاريخى أو خبراتنا الشخصية نتيجة لتعاملنا مع أشكال الإلحاد السفسطائى بين شبابنا) دون الخروج بدروس تفيدنا فى التعامل مع المد الإلحادى الحالى:

1- **للتنشئة والتربية والتعليم** دور كبير فى التوجه الإلحادى، ظهر فى نشأة إسماعيل أدهم المضطربة بين تعصب وقسوة دينية مارسها والده وزوج عمته وبين تساهل دينى وسخرية تأثر بهما من أختيه، وأكمل المهمة التعليم الإلحادى الذى تلقاه فى الاتحاد السوفيتى.

2- **للبنية النفسية للإنسان** دور كبير أيضًا فى التوجهات الإلحادية، فالشخصيات الثلاث التى درسناها لم تكن شخصيات سوية نفسيًّا. فهذا إسماعيل أدهم ينتحر فى شرخ شبابه لأنه لم يجد طمأنينة فى الحياة التى لا معنى لها، وهذا ابن الراوندى المتطرف فى انتهازيته وتسلقه، وأخيرًا شخصية القصيمى التى ينضح من جوانبها الكِبر.

3- البحث عن الشـهرة والتميز بمنطق «**خالف تعرف**» عامل مشترك ـ بدرجات مختلفة ـ فى الشخصيات التى درسناها.

4- يقـوم الإلحاد على **خطأين كبيرين**، علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لمحوهما من عقول ونفوس الملاحدة. وهما أن الإيمان الدينى فى كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان.

5- ينبغى **على الدعاة الإلمام بالخطوط العريضة** للفلسـفات المادية وكيفية دحضها، وكذلك الإلمام بالمفاهيم العلمية وكيفية اسـتنباط الأدلة على الألوهية منها. وقد رأينا كيف كان الفكر الماركسى والثورة العلمية بمكتشـفاتها وراء إلحاد د. إسماعيل أدهم، وتُعتبر هذه النقلة الفكرية المرجوة من أهم جوانب **تجديد الفكر الدينى** التى ندعو إليها.

6- ينبغى التعامل مع الشـكوك التى تعتمل فى نفوس البعـض **بالرفق واللين والحوار**، وليس بالزجر والتأنيب، وهما من العوامل التى دفعت القصيمى للإلحاد.

7- ينبغـى أن **تمتد حريـة الحوار إلى المجتمع كلـه**، فالآراء الصحيحـة الصريحة الحرة هى القادرة على دحض حجج الإلحاد، وهذا هو المنهج الذى وجهنا إليه الله عَزَّوَجَلَّ فى القرآن الكريم: ﴿...قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

إذًا «**فالفكر لا يُقاوَم إلا بالفكر**»، هذا هو أحد أكبر الدروس من كتابنا...

□□□